السلوك للمقريزى

بقلم
الدكتور محمد مصطفى زيادة
أستاذ بكلية الآداب بجامعة القاهرة

للمؤرخ المصرى أحمد المقريزى صدارة واضحة لا ريب فيها بين معاصريه وسابقيه ولاحقيه من المؤرخين فى مصر الإسلامية ، وهو صاحب هذا الامتياز النادر المحسود بفضل مؤلفاته التاريخية وغير التاريخية المتنوعة ، وآخرها بحسب ترتيبها الزمنى فى سلك إنتاجه الوفير كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك .

والترتيب الزمنى وحده دون غيره من صفات ومؤهلات يجعل هذا الكتاب فخر مؤلفات المقريزى ، من حيث أنه منتهى مهاراته ، وخاتمة خبراته وقمة تجاربه وأوج نضوجه العقلى والعلمى والفنى فى كتابة التاريخ .

والمقدمة الطبيعية للتعريف الوافى بهذا الكتاب وأسلوبه ومحتوياته ، هى التعريف بادئ ذى بدء بعصر مؤلفه وتاريخ حياته وعديد مؤلفاته السابقة ، لأن لكل من هذه العناصر نصيباً ظاهراً ومستتراً فى بناء ذلك الكتاب الكبير .

وأحمد بن على المقريزى مولود سنة ١٣٦٤ ميلادية بحارة برجوان بقسم الجمالية بمحافظة القاهرة الحالية ، فى أسرة معروفة أجيالها بالاشتغال بالعلم بدمشق وبعلبك والقاهرة ، أى أنه شهد حوادث عصره من زاوية أبناء الفئة الفكرية من الطبقة الوسطى على قول المصطلح الاجتماعى فى العصر الحاضر . أما هذه الحوادث فهى فى مجموعها نوبات احتضار وذبول وأفول فى دولة مملوكية ذات بطولات شامخة سالفة ، وأمجاد ماضية ملأت عين التاريخ فى الشرق والغرب . ولعشرين سنة هى سنوات طفولته ومراهقته وشبابه ، شهد أحمد المقريزى حوادث ذلك العصر الآفل من نافذته الفكرية المصرية البعيدة عن شئون الدولة المملوكية وأمرائها الذين جعلوا من السلاطين الأطفال وأشباه الأطفال وقتذاك ، ستاراً رقيقاً شفافاً ساذجاً يعملون من ورائه لتحقيق مطامع أميرية فردية ضيقة لم تلبث أن أزالت تلك الدولة المملوكية الكبرى من مسارح التاريخ إلى كتبه .

وفى وسط تلك الحوادث الصاخبة المتقلبة عكف الشاب أحمد المقريزى على الدراسة التقليدية لأبناء طبقته ، وهى دراسة علوم الدين وحفظ القرآن ومعرفة النحو ، ودراسة الفقه والتفسير والحديث ، وبعض العلوم الأخرى مثل التاريخ وتقويم البلدان والأدب والحساب . غير أن نظرة عابرة فى مؤلفاته المستقبلة ، تدل دلالة واضحة على مدى تأثره بمحيطه من

الحوادث المضطربة ، ومثله فى ذلك مثل أستاذه عبد الرحمن بن خلدون الذى رأى ما بإسبانيا الإسلامية وشمال أفريقيا من تفكك وانحلال وفساد وفتنة ، فألهمه ذلك تأليف تاريخه المسمى كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر ، كما ألهمه كتابة المقدمة المشهورة التى غدت منذ تأليفها أساساً لدراسة تجارب الأمم ، وعوامل التطور فى المجتمع ، وأسباب انهيار الدول .

وترددت هـــذه النغمة الاقتصادية الاجتماعيـــة التاريخية فى مؤلفات أحمد المقريزى ،لأسباب أولها عندى أنه تتلمذ لعدة سنوات على ابن خلدون ،إذ جاء هذا العالم المؤرخ الكبير — وهو أبو علم الاجتماع وفلسفة التاريخ — لاجئاً إلى القاهرة من موطنه تونس سنة ١٣٨٢ ميلادية ، ولم يلبث أن عقد خلال إقاماته المديدة بها حلقات دراسية كبيرة مبتدئاً بالجامع الأزهر ، ثم المدرسة القمحية بجوار جامع عمرو بن العاص ،ثم الظاهرية البرقوقية بشارع بين القصرين ، ثم الخانقاه البيبرسية بجوار باب النصر الحالى ؛ وصارت هذه الحلقات الدراسية نواة لمدرسة فكرية تخرج فيها أحمد المقريزى وغيره من معاصريه . والسبب الثانى هو المحيط المملوكى الذى انغمست فيه مصر وأهلها ،على حين عاش سلاطين المماليك وأمراؤهم فى حزبية وعصبية عنصرية انتحارية بين الأتراك والجراكسة مرة ، وبين المماليك المتوطنين والوافدين مرة أخرى . وثمة سبب ثالث وهوأن أسرة المقريزى جاءت إلى مصر حديثاً فى حياة أبيه من موطنها فى بعلبك بلبنان الحالية ، ولا بد أن امتلأت أحاديث أسرته بوصف خصائص الحياة المصرية الجديدة عليها وبمقارنتها بالحياة فى لبنان ، فتولدت فيه روح الاستطلاع والفحص منذ طفولته ومراهقته وشبابه .

ويرجع اسم المقريزى إلى حارةمقريز فى بعلبك ، ولا يسع الباحث هنا إلا أن يشير إلى المطابقة الحرفية بين هذا الاسم ولفظ مقريزى فى اللغة الإيطالية ، حيث يطلق هذا الاسم على جهة بايطاليا قرب روما مما يحتمل معه أن تلك الحارة البعلبكية كانت سكناً لجالية من الجاليات الإيطالية الكثيرة التى وفدت للتجارة ببلاد الشرق الأدنى زمن الحروب الصليبية ، ثم خلفت اسمها بعد خروج الصليبيين وجالياتهم الأوروبية من الشرق . ورأيت من حق المقريزى علىّ — وهو شيخى — أن أبحث عن هذه الحارة وموضعها القديم أثناء زيارتى بعلبك ، فلم أستطع أن أتعرف عليها برغم إلحاحى فى السؤال ، ولعلها كانت على مقربة من معبد الشمس القديم الباقية آثاره فى بعلبك الحالية ، وهو المعبد الذى جعله الصليبيون حصناً ، وبنت الجاليات الأوروبية مساكنها حوله التماساً للأمن والحماية والتجارة .

ولا ينبغى هنا أن يتسرب إلى الذهن أن المقريزى من سلالة إيطالية لأن آباءه وأسلافه معروفون ، فجده لأبيه من كبار المحدثين الحنابلة وينتسب إلى الفاطميين على قوله ، وجده لأمه محدث كبير اسمه ابن الصايغ الحنفى ، وهو الذى كفل تعليمه لضيق حال أبيه على المقريزى فيما يبدو ، قبل أن يصبح هذا الأب من أصحاب الأملاك والعقار . ثم أن المقريزى كما قلت فى العبارة الافتتاحية هنا جاء من أسرة معروفة أجيالها بالاشتغال بالعلم وهو ما لا ينتظر أن تشتغل به أسرة من الأسرات الأجنبية الأصل التى يشتغل أبناؤها عادة فى المهن والصناعات والحرف ، وثمة دليل ثالث ، أن المؤرخ السخاوى الذى اشتهر بتعقب أخبار السالفين والمعاصرين ، لم يذكر شيئاً عن هذا الاحتمال البعيد مع ماهو معروف عن السخاوى من الغرام بالنهش فى أصول الناس وأسرارهم ، ولا سيما أهل صناعته من المؤرخين .

والتحق أحمد بن على المقريزى بالخدم الحكومية بعد أن غدا بحكم طبقته وتعليمه من أهل القلم والمعرفة ، وهى التسمية المميزة لهذه الطبقة من طبقة أهل السيف وهم المماليك وحدهم ، دون غيرهم من سكان البلاد المصرية . وأول عهد المقريزى بالخدم الحكومية كأبيه من قبله ديوان الإنشاء بالقلعة ، وهو الديوان الذى

يقابله فى العصر الحاضر وزارة الخارجية ، فعمل سنة ١٣٨٨ موقعاً — أى كاتباً — وهى وظيفة لا يبلغها وقتذاك سوى أصحاب المؤهلات العالية والموهبة والمعرفة والتفوق فى اللغة والأدب والتاريخ وتقويم البلدان والحساب :

ثم تعين المقريزى نائباً من نواب الحكم — أى قاضياً — عند قاضى القضاة الشافعية ، بسبب ما اشتهر عنه من الحماسة للمذهب الشافعى منذ أيام دراسته وتحوله عن مذهب الحنفية الذى نشأ فيه ، ثم صار المقريزى إماماً لجامع الحاكم الفاطمى وهى وظيفة كبيرة فى ذلك العصر ، وتولى بعد ذلك وظيفة مدرس للحديث بالمدرسة المؤيدية ، وهى وظيفة يقابلها فى المصطلح الجامعى فى العصر الحاضر وظيفة أستاذ ذى كرسى ، وربما كان تعين أحمد المقريزى فى تلك الوظيفة التعليمية العالية بتوصية خاصة من أستاذه عبد الرحمن بن خلدون لدى السلطان برقوق .

ثم انتقل المقريزى من التدريس إلى الحسبة حين عينه السلطان برقوق سنة ١٣٩٨ محتسباً للقاهرة وللوجه البحرى ، فانتقل بذلك من دائرة المشتغلين بالعلم والتعليم إلى دائرة الإدارة والاختلاط بمختلف طبقات المجتمع ، ولا سيما أرباب الأسواق والمتاجر وأصحاب المهن والصنايع . ذلك أن وظيفة المحتسب التى يقابلها فى العصر الحاضر عدة وظائف وزارية شملت وقتذاك النظر فى الأسعار الجارية ، وأحوال النقود وضبط الموازين والمكاييل والمقاييس ومراقبة الآداب العامة ، ونظافة الشوارع وتنظيم حركة المرور بها ، مع الإشراف على المدارس والمدرسين والطلاب ، والعناية بالمساجد والحمامات والقياسر والوكالات ، فضلا عن مراقبة أصحاب الصناعات العالية من الأطباء والصيادلة والمعلمين أى المهندسين المعماريين . ويضاف إلى هذه الواجبات الكثيرة الداخلة فى اختصاص المحتسب أحوال الباعة الجوالة والمتعيشين والشحاتين والمتعطلين الذين كانوا خطراً على الأمن ، ويتضح من ضخامة هذه الوظيفة ومسئولياتها أن أحمد بن على المقريزى الذى تعين عليها بأمر السلطان برقوق ،لا بد أنه اشتهر وقتذاك بالكفاية والدقة فى الإدارة والأمانة فى تطبيق الأحكام الشرعية ، غير أنه لم يلبث أن تنحى عن هذه الوظيفة مرتين فى عامين متتاليين ، إذ ضاق بمسئولياتها التى شغلت وقته ليلا ونهاراً ، وصرفته عن القراءة وتطلبت منه الجلوس فى دكة المحتسب للفصل فى شكاوى السوق والسوقة ،وتوقيع العقوبات على المخالفين ،وإصدار الأوامر إلى العرفاء والأعوان والنقباء ، مع العلم بأن وظيفة محتسب القاهرة شملت الوجه البحرى كله . وحوالى ذلك الوقت تزوج أحمد المقريزى وأنجب ، إذ المعروف أن بنتاً له ماتت فى سن السادسة بالطاعون الذى اجتاح القاهرة وسائر البلاد المصرية سنة ١٤٠٣ . وهذا الطاعون بالذات هو الذى دفع أحمد المقريزى إلى تأليف كتاب إغاثة الأمة بكشف الغمة ، كما دفعه ضيقه بوظيفة الحسبة ومسئولياتها إلى تأليف كتاب شذور العقود فى ذكر النقود ، وكتاب الأكيال والأوزان الشرعية . ويبدو أن هذه الكتب الصغيرة كانت أوائل عهد المقريزى بالتأليف ، كما يبدو من محتوياتها مدى تأثير عبد الرحمن بن خلدون فى التكوين الفكرى عند تلميذه الموهوب .

ثم عاد المقريزى إلى دائرة المشتغلين بالتدريس مرة أخرى ، حين عينه السلطان برقوق سنة ١٤٠٨ مدرساً للحديث بالمدرستين الاقبالية والأشرفية بدمشق ، مع التنظر على أوقاف المارستان — أى المستشفى — النورى بها . ثم عينه السلطان فرج بن برقوق نائباً للحكم — أى قاضياً — بدمشق ، استيفاء لشرط الواقف أن يكون المتعينون على الأوقاف الدمشقية قضاة بها . لكن المقريزى أبى قبول هذا الشرف على الرغم من عرض الوظيفة عليه مراراً ، ويظهر أنه سئم الخدم الحكومية وضاق بتكاليفها وأعبائها ، وأنه ملك من الموارد المالية

التى جاءته من الوقف ، وما ورثه من الأملاك عن جده لأبيه بدمشق نفسها ما أغناه عن تضييع وقته فى كسب العيش عن طريق مجالس الحكم والقضاء .

ويظهر كذلك أن المقريزى استطاع أن يكتب أول مؤلفاته الطويلة فى هذه السنوات الدمشقية من حياته وهو كتاب السيرة النبوية الذى عنوانه امتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والحفدة والأخوال والأتباع ، وهو كتاب مشحون بصفحات متتالية من مؤلفات السابقين فى تاريخ السيرة . ومما يرجح نسبة هذا الكتاب الضخم إلى تلك السنوات قول المقريزى فى مقدمته « أنه غير جميل بمن تصدى للتدريس والافتاء وجلس للحكم بين الناس وفصل القضاء، أن يجهل من أحوال رسول الله .. وجميل سيرته .. ما لا غنى عن معرفته » . وإلى تلك السنوات الدمشقية من حيـــاة المقريزى يرجع كذلك كتاب النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم ، وهو كتاب مستمد من فكرة العصبية القبلية التى بنى عليها عبد الرحمن بن خلدون معظم نظرياته فى فلسفة التاريخ .

ثم رحل أحمد المقريزى عن دمشق بعد إقامته بها نحو عشر سنوات وعاد إلى القاهرة ليتوفر على الدرس والتدريس والتأليف الذى وضحت موهبته فيه بما أخرجه من المؤلفات الصغيرة . غير أنه تراءى له أن يحج أولا ، كأنما أراد أن يفصل بين مرحلتين من حياته ، ومن أجل ذلك رحل المقريزى وأسرته حاجاً إلى مكة التى عرفها هو قبل ذلك وجاور بها مدة قصيرة إبان طلبه العلم . على أنه ظل مقيما بمكة هذه المرة نحو خمس سنوات واشتغل فى تلك السنوات المكية من حياته بتدريس الحديث ، وربما يرجع تأليف كتابه الذى عنوانه « الكلام ببناء الكعبة بيت الله الحرام » ، وكتاب « ضوء السارى فى معرفة تميم الدارى » وكتاب « التبر المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك » ، وكتاب « وصف حضرموت العجيبة » إلى هذه المدة المكية من حيـــاة المقريزى ، فانها كلها كتب صغيرة خاصة بمحيط بلاد العرب ، وأخبارها ، ومن الراجح أن الكتاب المسمى «الإعلام بمن فى أرض الحبشة من ملوك الإسلام » يرجع كذلك إلى هذه المجموعة المكية .

ثم استقر أحمد المقريزى بعدئذ بالقاهرة ، حيث أمضى بقية حياته الطويلة بحارة برجوان ، التى ما برح منذ شبابه يفاخر بها على سائر الحارات القاهرية فى العصور الوسطى . ويظهر أنه جعل من داره بها مكاناً لدراسة تلاميذه وللتأليف الكثير فى مختلف نواحى دراسته . وبدأ المقريزى نشاطه العلمى فى هذه المرحلة من حياته بكتاب تاريخ القاهرة المسمى المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، وهو الكتاب المشهور باسم الخطط لأنه توفر فيه على دراسة المعالم القاهرية من حارات وشوارع ودروب وقياسر وحمامات ورباع وأسواق ومدارس وخوانق ومستشفيات ، فضلا عن أخبار المدن المصرية الكبرى ، وتراجم رجال الدول ونظم الحكم فى مختلف العصور . وافتتح المقريزى هذا الكتاب الزاخر بعبارة ناطقة بوطنية مصرية دافقة ، فقال : « وكانت مصر هى مسقط راسى ، وملعب أترابى ، ومجمع ناسى ومغنى عشيرتى وحامتى وموطن خاصتى وعامتى . . » . غير أنه يبدو من حجم هذا الكتاب أن المقريزى اعتمد فى تأليفه على كتاب صنفه قبله المؤرخ أحمد بن عبدالله الأوحدى ، فنقل من مسوداته بالجملة دون أن يشير إليه بكلمة واحدة . ولذا وصف عبد الرحمن السخاوى هذا الكتاب بقوله ساخراً أنه كتاب مفيد لكون المقريزى « ظفر بمسودة الأوحدى فأخذها وزاد عليها زوائد غير طائلة » . وخشى المقريزى مما سوف تجلبه هذه التهمة من إساءة وأذى لسمعته العلمية ، بدليل مبادرته بالتلميح الإنكارى إليها فى مقدمته لهذا الكتاب ، حيث قال « حسب العالم أن يعلم ما قيل ويقف عليه » . غير

أن ذلك التلميح لم يمنع بعض المعاصرين من ترديد هذه التهمة ، فرأى المقريزى أن يقطع الطريق على أصحابها بعبارة صريحة فى كتاب آخر من مؤلفاته وهو « درر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة » حيث اعترف بأنه استعان بمسودات الأوحدى ومصادرها فى بناء كتابه ، ودل بذلك على شجاعة أدبية شبه مفقودة فى العصر الحاضر .

ويتضح من اتجاه مؤلفات المقريزى بعد ذلك أنه رسم لعمله المستقبل ترتيباً تاريخياً استهدف به أن يكتب تاريخ كل دولة من الدول الإسلامية فى مصر حتى عصره فى مؤلف مستقل . وبدأ المقريزى هذا الترتيب التاريخى بكتاب « البيان والاعراب فيمن دخل مصر من الاعراب » ثم أعقبه بكتاب « عقد جواهر الاسفاط فى أخبار مدينة الفسطاط » وهو تأريخ لمصر منذ الفتح العربى حتى قيام الدولة الفاطمية . ثم تلا ذلك كتاب فى الدولة الفاطمية سماه المقريزى « اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا » ، ثم كتب بعد ذلك كتاب « السلوك لمعرفة دول الملوك » فى أربعة أجزاء ضخمة ، وهو الكتاب الذى غدا أساساً لجميع التواريخ المصرية فى عصر الدولتين الأيوبية والمملوكية ، وحق له أن يكون فخر مؤلفات المقريزى وأن يكون عنواناً لهذا المقـــال .

ومن الملحوظ أن المقريزى كتب المؤلفات المتقدمة لتكون كلها ذيلا على كتاب المواعظ والاعتبار ، وأنه قصد فى كل منها أن يشرح ما أجمله من أخبار الدولة الإسلامية المصرية فى ذلك الكتاب الكبير . ويظهر أنه عكف أثناء تأليفه هذه الكتب المتقدمة على إعداد المادة التاريخية لكتاب كبير آخر فى التراجم والسير ، وعنوانه « المقفى الكبير » ، وهو كتاب رغب المقريزى أن يجعل منه معجماً كبيراً لتراجم حكام مصر ورجالها والواردين عليها ، منذ أقدم العصور التاريخية المعروفة لديه إلى ما قبل عصره . أما كتاب درر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة ، وهو الكتاب الذى تقدمت الإشارة إليه ، فقصد به المقريزى أن يكون معجماً محلياً لشخصيات عصره ، وربما بدأ الكتابة فيه وهو ماض فى ترتيب معجمه الكبير .

وكما جعل المقريزى كتاب المواعظ والاعتبار أساساً تفرعت عليه مؤلفاته التاريخية فى مختلف مراحل التاريخ المصرى فى العصور الوسطى ، فإنه استوحى ذلك الكتاب واستلهمه لتأليف كتاب فى التاريخ القديم عنوانه « الخبر عن البشر » ، وهو عنوان يوحى إلى الذاكرة بكتاب ابن خلدون .

ثم ألف المقريزى كتاب شارع النجاة فى تاريخ الأديان ، وهو أول كتاب مستقل من نوعه فى اللغة العربية . وتناول المقريزى بالتأليف موضوعات صغيرة مرتبطة بالمجتمع الذى عاش فيه وهى كذلك موضوعات من وحى كتاب المواعظ والاعتبار ، مثل كتاب الوزارة ، وللمقريزى كذلك كتب صغيرة لا ينتظر الباحث انصرافه إليها مثل المقاصد السنية فى معرفة الأجسام المعدنية ،وكتاب إزالة التعب والعناء فى معرفة الحال فى الغناء ، وكتاب الإشارة والإيماء فى حل لغز الماء ، وربما كان مرجع تأليف هذه الكتب المتباينة إلى أيام ولايته وظيفة الحسبة .

وزادت مؤلفات المقريزى الكبرى والصغرى على مائة كتاب ويتعجب المعاصرون والمتأخرون والمحدثون أن ينسب ذلك العدد الوافر من الكتب إلى مؤلف واحد ، وهذا التعجب لا يقتصر على مؤلفات المقريزى ، بل يتعداه إلى مؤلفات المؤرخين فى مصر فى العصور الوسطى وغيرها من البلاد فى تلك العصور فى الشرق والغرب . أما تفسير ذلك فهو أن بعض الكتب الصغرى التى كتبها المقريزى أو غيره من المؤلفين فى تلك العصور لم تتعد موضوعاً بذاته أو حادثة بعينها ، وبعض هذه الكتب لا تزيد عن مقالة طويلة فى مجلة شهرية أو ربعية أو نصف سنوية فى العصر الحاضر ،

وهذا البعض يتسم فى الواقع بالطابع الصحفى لتنوير أرباب الدولة وذلك قبل أن تصبح الصحافة جزءاً من مقومات المجتمع .

ولهذا ينبغى أن تعد الكتب الصغرى عامة بمثابة أول محاولة صحفية لتكوين ما هو معروف باسم الرأى العام فى المصطلح السياسى الحديث .

ولعل أهم المؤلفات المقريزية الصغيرة التى تقدمت الإشارة إليها كتاب النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم ، وكتاب إغاثة الأمة بكشف الغمة ، إذ أرجع المقريزى فى الكتاب الأول من هذين الكتابين أمر التنافس على الخلافة فى الدولة الإسلامية بين الأمويين والهاشميين إلى عصبيات الجاهلية القديمة ، وأهمل جانب الحوادث والحروب المريرة والشخصيات المتنافرة ، التى لم تعد كلها أن تكون أسباباً طارئة . أما الكتاب الثانى ، وهو إغاثة الأمة بكشف الغمة فتناول المقريزى فيه تاريخ المجاعات التى نزلت بمصر منذ أقدم العصور إلى زمنه . وأدى به البحث إلى أن أسباب ما ينزل بالناس من مجاعات وطواعين وأغلية ، إنما هو سوء تدبير الملوك والحكام وغفلتهم عن النظر فى مصالح العباد لا نقص النيل أو قلة المطر ، ولا غضب الله على أهل مصر خاصة ، وهو تخريج اقتصادى سليم لم يسبق إليه أحد من المؤلفين فى الشرق الإسلامى أو الغرب المسيحى قبل المقريزى .

وثمة ناحية جديرة بالانتباه فى معرض هـــذه الإشارات العابرة إلى بعض المؤلفات الصغيرة للمقريزى ، وهى أنه على حين تموج مؤلفاته الكبيرة بأخبار الخلفاء والسلاطين والأمراء ، وتؤود بحوادث العزل والولاية وتفيض بالتراجم والوفيات حتى تكاد شخصية المؤلف لا تظهر إلا بمنظار ، إذ بهذه الكتب الصغيرة تلقى كثيراً من الضوء على هوية المؤلف ، وتدل على بعض ملامح عصره وتوضح سبيل الفهم للأحوال الفكرية والاجتماعية والاقتصادية ، وذلك أن المقريزى يعرض فى كتبه الصغيرة مسائل قل أن يستطيع التعرض لها فى حولياته الكبيرة ، ويتحلل من قيود تسجيل الأخبار ، ويجروء على الادلاء بآرائه الخاصة فى أسلوب النصيحة بل يحاول أحياناً أن يعلل ويحلل حادثة بذاتها تعليلا عقلياً أو يناقش عيباً من عيوب المجتمع نقاشاً حراً . وفى ذلك كله كذلك شرح لشخصية المقريزى الذى توفى بالقاهرة أوائل سنة ١٤٤٢ م .

وبعد هذه الصفحات المحتوية على الضرورى الجوهرى من أوصاف عصر أحمد بن على المقريزى ومحيطه وحياته ومؤلفاته ينتقل هذا المقال انتقالا طبيعياً إلى وصف محتوى كتابه السلوك لمعرفة دول الملوك ، وأول ذلك مقدمة سريعة فى تاريخ السلاجقة الذين تفرع عليهم سلاطين الأيوبيين ثم سلاطين المماليك بعدهم فى مصر والشام . ثم انتقل المقريزى من هذه المقدمة المختصرة إلى نظام الحوليات الشاملة لعهد كل سلطان من السلاطين ، وذلك بأن دون حوادث كل عام تدويناً مستقلا ، وتحت عنوان باسم ذلك العام بخط كبير ومداد غير مداد المتن ، ثم ختم للحوادث بذكر الوفيات والترجمة لأصحابها فى شىء من الاختصار العامد ، ثم انتقل إلى العام التالى فجعل له عنواناً جديداً ، وسجل حوادثه على هذا النمط التقليدى الرتيب ، وهكذا دون أن يؤلف من كتابته موضوعاً متصلا ، ما عدا أنه افتتح السنة أحياناً بذكر الوظائف الكبرى ومن عليها ، وهذا فى الغالب إذا جاء فاتحة السنة موافقة لقيام سلطان جديد ، وحدوث تغيير وتبديل بين موظفى البلاط السلطانى ، واعتاد المقريزى كذلك أن يكتب اسم السلطان الجديد بخط كبير ومداد مخالف ، غير أنه لم يجعل منذلك وقفة يلخص فيها أو يفلسف ، بل اكتفى بعبارات افتتاحية حاذرة فى أصل السلطان وماضيه ، ثم انتقل إلى ذكر الحوادث والأسباب حسب ترتيبها الزمنى على قدر الإمكان ، وهكذا إلى أن صار

الكتاب كلما قرب المؤلف من عصره سجلا يومياً ضافياً بأخبار ما يقع بمصر وولاياتها وجاراتها من الحوادث الكبرى والصغرى ويتخلل هذا السجل الطويل شيء من أسعار المحاصيل وأحوالها ، أو فيضان النيل أو هبوب ريح سوداء تدفع الأبقار فى الهواء، أو تفصيلات جدل أدبى ، أو أدوار محنة فقهية ، أو تعديل فى نظم الحكم والجيش ، أو وصف مسجد أنشأه سلطان أو أمير ، أو نص رسالة أرسلها ملك من ملوك البلاد المجاورة وجواب السلطان عليها، وذلك فضلا عن الوفيات والتراجم التى تطول أو تقصر بحسب مزاج المقريزى أو مقاييسه، وبحسب القيمة السياسية أو الاجتماعية أو العلمية للمترجم له .

والآن يأمل كاتب هذه الصفحات أن يجد القارىء الكريم وقتاً لمطالعات كبيرة فى الأجزاء المطبوعة والمخطوطة من هذا الكتاب ، ليقرأ منه ما يشاء ملء شهيته وطاقته، وليلمح بنفسه ما فى صفحاته بين لحظة وأخرى من ومضات عابرة من شخصية المقريزى ، أو صرخات صامتة من قلمه القوى ، أو نفحات من روح مؤلفاته المتنوعة ولا سيما إغاثة الأمة بكشف الغمة، لأنه لا سبيل إلى التعريف الحقيقى بذلك الكتاب أو غيره من الكتب الكبرى أو الصغرى إلا عن طريق القراءة الشاملة الكاملة ، لمشاركة المؤلف فى تجربته ، فاذا لم تسعف الفرصة لذلك ، فلا أقل من استعراض صفحات نموذجية مختارة ، لمعرفة ما للمقريزى من مقدرات ومهارات فى كتابة الأخبار التاريخية ، أو رسم اللوحات القلمية الواصفة لشخصية من الشخصيات الهامة فى التاريخ المصرى . وربما يكفى الاجتزاء هنا بالصفحات الخاصة بالسلطان صلاح الدين الأيوبى ، ثم بالصفحات المشتملة على عصر السلطان الناصر محمد بن قلاون من باب الدعوة السريعـــة إلى القراءة المتئدة الواسعة .

مختارات من كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك

(١) جهاد صلاح الدين ضد الصليبيين وفتح بيت المقدس سنة ٥٨٣ ﻫ .

(ج ١ ، ص ٩٢ – ٩٩)

وأهلت سنة ثلاث وثمانين وقد برز السلطان من دمشق لجهاد الفرنج يوم السبت أول المحرم، وأقر ابنه الأفضل على رأس الماء ، ونزل بصرى فأقام لحفظ الحاج حتى قدموا فى آخر صفر . فسار إلى الكرك ، فى اثنى عشر ألف فارس ونازلها وقطع أشجارها ، ثم قصد الشوبك ففعل بها مثل ذلك . وخرج الحاجب لؤلؤ على الأسطول من مصر وهو خمسة عشر شينياً ، ليسير إلى الإسكندرية . وخرج العادل من القاهرة فى سابع المحرم إلى بركة الجب وسار إلى الكرك ، فمر على أيلة والتقى مع السلطان على القريتين ، وعادا إلى الكرك فنازلاها فى ربيع الأول وضايق السلطان أهلها ، ثم رحل عنها ، ونازل طبرية . فاجتمع من الفرنج نحو الخمسين ألفاً بأرض عكا ، ورفعوا صليب الصلبوت فافتتح السلطان طبرية عنوة فى ثالث عشرى ربيع الآخر وغاظ ذلك الفرنج وتجمعوا فسار إليهم السلطان ، وكانت وقعة حطين التى نصر الله فيها دينه ، فى يوم السبت رابع عشريه . وانهزم الفرنج بعد عدة وقائع وأخذ المسلمون صليب الصلبوت وأسروا الابرنس أرناط صاحب الكرك والشوبك وعدة ملوك آخرين، وقتل وأسر من سائر الفرنج ما لا يعد كثرة ، ثم قدم الابرنس أرناط وضرب السلطان عنقه بيده ، وقتل جميع من عنده من الفرنج الداوية والاسبتارية . ورحل السلطان إلى عكا فنازلها سلخ ربيع الآخر ومعه عالم عظيم .

قال العلامة عبد اللطيف بن يوسف البغدادى : « كان السوق الذى فى عسكر السلطان على عكا عظيما ،

ذا مساحة فسيحة ، فيه مائة وأربعون دكان بيطار . وعددت عند طباخ واحد ثمانيا وعشرين قدرا ، كل قدر تسع رأس غنم . وكنت أحفظ عدد الدكاكين لأنها كانت محفوظة عند شحنة السوق . وأظنها سبعة آلاف دكان ، وليست مثل دكاكين المدينة ، بل دكان واحد مثل مائة دكان ،لأن الحوائج فى الأعدال والجوالقات ،ويقال إن العسكر انتنت منزلتهم لطول المقام ، فلما ارتحلوا غير بعيد ، وزن سمان أجر نقل متاعه بسبعين دينارا ، وأما سوق البز العتيق والجديد فشيء يبهر العقل . وكان فى العسكر أكثر من ألف حمام ، وكان أكثر ما يتولاها المغاربة ، يجتمع منهم اثنان أو ثلاثة ويحفرون ذراعين فيطلع الماء ، ويأخذون الطين فيعملون منه حوضاً وحائطاً ، ويسيرونه بحطب وحصير ، ويقطعون حطباً من البساتين التى حولهم ، ويحمون الماء فى قدور وصار حماماً يغسل الرجل رأسه بدرهم وأكثر » .

فلم يزل صلاح الدين على محاصرة عكا إلى أن تسلمها بالأمان فى ثانى جمادى الأولى واستولى على ما فيها من الأموال والبضائع ،وأطلق من كان بها من المسلمين مأسوراً وكانوا أربعة آلاف نفس . ورتب فى كنيستها العظمى منبراً ، وأقيم فيها الجمعة ،وأقطع عكا لابنه الأفضل على ، وأعطى جميع ما للداوية من إقطاع وضياع للفقيه ضياء الدين عيسى الهكارى . وسار العادل بعساكر مصر إلى مجد ليابا . فحصره وفتحه وغنم ما فيه . وافتتحت عدة حصون حول عكا ، وهى قيسارية وحيفا وصفورية ومعليا والشقيف والنولع والطور . ونهب ما فيها وسبيت النساء والأطفال فقدموا بما سد الفضاء ، وأخذت سبسطية ونابلس . وكتب السلطان للخليفة بخبر فتح هذه البلاد ، ونزل العادل على يافا حتى ملكها عنوة ونهبها وسبى الحريم وأسر الرجال . ونازل المظفر تقى الدين عمر تبنين ، وأدركه السلطان فوصل إليها فى حادى عشر جمادى الأولى ، وما زال محاصراً لها حتى تسلمها فى ثامن عشر بأمان ،وجلا أهلها عنها إلى صور وتسلم السلطان العدد والدواب والخزائن ، وسار فأخذ صرخد بغير قتال . ثم رحل إلى صيداء ففر أهلها وتركوها ، فتسلمها السلطان فى حادى عشريه ونازل بيروت وضايقها ثمانية أيام إلى أن طلب أهلها الأمان ،فأجابهم ،واستولى عليها فى تاسع عشريه . وأخذ جبيل فكان من استنقذ بالله من المسلمين المأسورين عند الفرنج فى هذه السنة ما يزيد على عشرين ألف إنسان ، وأسر المسلمون من الفرنج مائة ألف أسير .

وهلك فى هذه السنة القومص صاحب طرابلس . وقدم المركيس — أكبر طواغيت الفرنج — إلى صور وقد اجتمع بها أمم من الفرنج ، فتملك عليهم ، وحصن البلد فسار السلطان بعد فتح بيروت وتسلم الرملة والخليل وبيت لحم واجتمع مع أخيه العادل ،ونازلا عسقلان فى سادس عشر جمادى الآخرة ، ونصبا المجانيق عليها ووقع الجد فى القتال إلى أن تسلم السلطان البلد فى سلخه ، وخرج منه الفرنج إلى بيت المقدس بعد أن ملكوه خمساً وثلاثين سنة . وتسلم السلطان حصون الداوية ، وهى غزة والنطرون وبيت جبريل . وقدم عليه بظاهر عسقلان ابنه العزيز عثمان من مصر ووافته الأساطيل وعليها الحاجب لؤلؤ . وكانت الشمس قد كسفت قبل أخذ عسقلان بيوم حتى أظلم الجو وظهرت الكواكب فى يوم الجمعة ثامن عشريه .

وسار السلطان — وقد اجتمعت إليه العساكر — يريد فتح بيت المقدس ، فنازله يوم الأحد خامس عشر رجب ، وبه حشود الفرنج وجميعهم ، فنصب المجانيق ، واقتتل الفريقان أشد قتال ، واستشهد فيه جماعة من المسلمين . وأيد الله بنصره المسلمين حتى تمكنوا من السور ونقبوه وأشرفوا على أخذ البلد . فسأل الفرنج حينئذ الأمان ، فأعطوه بعد امتناع كثير من السلطان ، على أن يعطى كل رجل من الفرنج عن نفسه عشرة دنانير مصرية سواء كان غنياً أو فقيراً ، وعن المرأة

خمسة دنانير ، وعن كل طفل من الذكور والإناث دينارين ، ثم صولح عن الفقراء بثلاثين ألف دينار . وتسلم المسلمون القدس ، يوم الجمعة سابع عشرى رجب ، وأخرج من فيه من الفرنج وكانوا نحو الستين ألفاً ، بعد ما أسر منهم نحو ستة عشر ألفاً ، ما بين رجل وامرأة وصبي ،وهم من لا يقدر على شراء نفسه . وقبض السلطان من مال المفاداة ثلاثمائة ألف دينار مصرية سوى ما أخذه الأمراء وما حصلت فيه الخيانة .

والتحق من كان بالقدس من الفرنج بصور ، وتسامع المسلمون بفتح بيت المقدس ، فأتوه رجالا وركباناً من كل جهة لزيارته ، حتى كان من الجمع ما لا ينحصر . فأقيمت فيه الجمعة يوم الرابع من شعبان وخطب القاضي محيي الدين بن الزكى بالسواد خطبة بليغة دعا فيها للخليفة الناصر والسلطان صلاح الدين ، وانتصب بعد الصلاة زين الدين بن نجا ، فوعظ الناس . وأمر السلطان بترخيم المحراب العمرى القديم، وحمل منبر مليح من حلب ، ونصب بالمسجد الأقصى وأزيل ما هناك من آثار النصرانية وغسلت الصخرة بعدة أحمال ماء ورد وبخرت وفرشت ، ورتب فى المسجد من يقوم بوظائفه ، وجعلت به مدرسة للفقهاء الشافعية . وغلقت كنيسة قمامة ،ثم فتحت وقرر على من يرد إليها من الفرنج قطيعة يؤديها . وخرجت البشائر إلى الخليفة بالفتح ، وإلى سائر الأطراف ورحل السلطان عن القدس لخمس بقين من شعبان يريد عكا ، وسار العزيز عثمان إلى مصر فكان آخر العهد به ،وسار العادل مع السلطان فنزل على عكا أول شهر رمضان ،ثم رحل السلطان منها ونزل على صور فى تاسعه ،وكانت حصينة وقد استعد الفرنج فيها . فتلاحقت العساكر بالسلطان ،ونصب على صور عدة من المجانيق وحاصرها . واستدعى السلطان الأسطول من مصر فقدم عليه عشر شوانى . وصار القتال فى البر والبحر ،فأخذ الفرنج خمس شوانى ووردت مكاتبة الخليفة على السلطان ،وفيها غلظة وإنكار أمور ، فأجاب بالاعتذار ، ورحل عن صور فى آخر شوال وعادت العساكر إلى بلادها . وأقام السلطان بعكا وسار العادل إلى مصر . فطرق الفرنج قلعة كوكب ، وقتلوا بها جماعة من المسلمين ، ونهبوا ما كان بها . وأتته على عكا رسل الملوك بالتهنئة من الروم والعراق وخراسان بفتح بيت المقدس .

وفى هذه السنة ، أعنى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، اجتمع الشمس والقمر والمريخ والزهرة وعطارد والمشترى وزحل وأظفار الذنب ، فى برج الميزان أربع عشرة ساعة ،فاجتمع المنجمون كلهم وحكموا بكون طوفان الريح ، وأنه ولا بد كائن وواقع ، فتنقلب الأرض من أولها إلى آخرها ،وأنه لا يبقى من الحيوان شىء إلا مات ،ولا شجرة ولا جدار إلا سقط . وكان معظم هذه الحكمة عن بلاد الروم . وأرجفوا بأنها هى القيامة فاتخذ قوم الكهوف والمغائر فى الجبال وبالغوا فى الاعتداد لهول ذلك اليوم . وقال القوم « كتب القدماء كلها أحالت على هذا الاجتماع ، وأن فيه دمار الدنيا » وكان ذلك فى مسرى وفى جمادى الآخرة للسابع والعشرين منه وهو يوم الثلاثاء مع ليلة الأربعاء إلى يوم الأربعاء ،فلم تهب ريح ولا تحرك نيل مصر ، وهو فى زيادته فى مسرى، ومن العادة أن تهب الريح من العصر إلى العشاء فى وجه الماء ،فيقف باذن الله فتكون فيه الأمواج فلم يحدث تلك الليلة ولا ثانى يوم ولا قبلها بيوم شىء من ذلك ، وطلع الناس بالسرج الموقدة على السطوحات لاختبار الهواء ، فلم تتحرك نار ألبتة . وكان أشد الناس إرجافاً بهذه الكواكب الروم ، فأكذبهم الله ، وسلط عليهم السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف ، فأخذ كبارهم وكسرهم ، وملأ الأرض من الأسرى شرقاً وغرباً ، وأخذ القدس وأصاب جماعة ممن كان يرجف بهذه الريح آفات ، ما بين موت بعضهم واعتلال بعضهم .

وفيها خرج فى سادس عشر جمادى الآخرة قفل

شامى إلى مصر، وهو أول قفل سلك بلاد الساحل، بلا حق يدفعه ولا مكس يؤديه، وفيها سار قراقوش التقوى، واستولى على القيروان، وحاربه ابن عبد المؤمن سلطان المغرب على ظاهر تونس فانكسر منه، وأقيمت الخطبة فى ربيع الأول فى تلك البلاد للسلطان صلاح الدين. فجمع ابن عبدالمؤمن، وواقع قراقوش وهزمه، ففر قراقوش فى البرية.

وفيها أمر السلطان بأن تبطل النقود التى وقع الاختلاف فيها وتضرر العامة بها، وأن يكون ما يضرب من الدنانير ذهباً مصرياً، ومن الدراهم الفضة الخالصة. وأبطل الدراهم السود لاستثقال الناس الميزان، فسر الناس ذلك.

(٢) السلطان الناصر محمد بن قلاون

(ج ٢، ص ٥٣٧ — ٥٤٥)

وكان يحب العمارة، فلم يزل من حين قدم من الكرك إلى أن مات مستمر العمارة. فجاء تقدير مصروفه كل يوم مدة هذه السنين ثمانية آلاف درهم. وكان ينفق على العمارة المائة ألف درهم، فإذا رأى فيها ما لا يعجبه هدمها كلها وجددها على ما يختار، ولم يكن من قبله من الملوك فى الانفاق على العمارة كذلك، بل أراد المنصور قلاون مرة أن يبنى مصطبة عليها رفرف يقيه حر الشمس ليجلس عليها، فكتب له الشجاعى تقدير مصروفها أربعة آلاف درهم، فتناول الورقة من يد الشجاعى ومزقها وقال « أقعدُ فى مقعد بأربعة آلاف؟، انصبوا لى صواناً إذا نزلت، ولا أخرج من بيت المال لمثل هذا شيئاً». وكذلك كان الظاهر بيبرس ومن قبله لا يسمحون بالمال، وإنما يدخرونه صيانة وخوفاً، ولم يعرف لأحد منهم أنه أنعم بألف دينار جملة واحدة.

واستجدت فى أيامه عمائر كثيرة: منها حفر خليج الإسكندرية من بحر فوة فى مدة أربعين يوماً، عمل فيه فوق المائة ألف رجل من أهل النواحى، فاستجد عليه عدة سواقى وبساتين فى أراضى كانت سباخاً، فصارت مزارع قصب السكر والسمسم. وعمرت هناك الناصرية، ونقل إليها مقداد بن شماس بأولاده وعدتهم مائة ولد ذكر. واستمر الماء طول السنة بخليج الإسكندرية. وأنشأ الميدان تحت القلعة، وأجرى له المياه وغرس فيه النخل والأشجار، ولعب فيه بالكرة فى كل يوم ثلاثاء مع الأمراء والخاصكية، وعمر فوق القصر الأبلق، وأخرب البرج الذى عمره أخوه الأشرف خليل على الاصطبل، وجعل فوقه رفرفاً، وترك أصله من أسفله وعمر بجانبه برجا نقل إليه المماليك. وغيّر باب النحاس بالقلعة، ووسع دهليزه، وعمر فى الساحة قدام الإيوان طباقاً للأمراء.. والخاصكية، وغيّر الإيوان مرتين، وفى المرة الثالثة أقره على ما هو عليه الآن، وحمل إليه العمد الكبار من بلاد الصعيد، فجاء من أعظم المبانى الملوكية. وعمر بالقلعة دوراً من باب القله من القلعة باباً ثانياً، وعمر حارة مختص وعمر الجامع بالقلعة والقاعات السبع التى تشرف على الميدان وباب القرافة لأجل سكنى سراريه، وعمر المطبخ وجعل عمائره كلها بالحجارة خوفاً من الحريق. وعزم أن يغير باب القلعة المعروف بالمدرج، ويعمل له دركاء، فمات قبل ذلك، وعمل فى القلعة حوش الغنم وحوش البقر وحوش المعزى وجاير الأوز وغير ذلك، فأوسع فيها نحو خمسين فداناً. وعمر الخانكاه بناحية سرياقوس ورتب بها مائة صوفى لكل منهم الخبز واللحم والطعام والحلوى وسائر ما يحتاج إليه. وعمر القصور بالقرب منها، وعمل لها بستاناً حمل إليه الأشجار من دمشق وغيرها، فصار به عامة فواكه الشام. وحفر الخليج الناصرى، خارج القاهرة، حتى أوصله إلى سرياقوس، فعمر على هذا الخليج عدة قناطر منها قنطرة عند الميدان أنشأها الفخر ناظر الجيش، وقنطرة قدادار والى القاهرة، وغير ذلك، فصار بجانبى الخليج عدة بساتين، وعمرت به أرض الطبالة بعدخرابها من أيام العادل كتبغا.

وعمرت فى أيام السلطان الناصر جزيرة الفيل وناحية بولاق بعد ما كانت رمالا ترمى بها المماليك النشاب ، وتلعب فيها الأمراء بالكرة ،فصارت كلها دوراً وقصوراً وجوامع وأسواقاً وبساتين وبلغت البساتين بجزيرة الفيل زيادة على مائة وخمسين بستاناً ، بعد ماكانت نحو العشرين بستاناً . واتصلت العمارة على ساحل النيل من منية الشيرج إلى جامع الخطيرى إلى حكر ابن الأثير وزريبة قوصون إلى منشأة الكتبة ومنشأة المهرانى إلى بركة الحبش ، حتى كان الإنسان يتعجب لذلك ، فانه كان يعهد هذا كله تلال رمل وحلفاء ، فصار لا يرى فيه قدر ذراع إلا وفيه بناء .

وعمرت فى أيامه أيضاً القطعة التى فيما بين قبة الإمام الشافعى إلى باب القرافة ، بعد ما كانت فضاء لسباق خيل الأمراء والأجناد والخدام ،فتحصل به اجتماعات جليلة للتفرج عليهم ، إلى أن أنشأ السلطان تربة الأمير بيبغا التركمانى ، فعمر ذلك كله ترباً وخوانك حتى صارت العمائر متصلة من باب القرافة إلى بركة الحبش لا يوجد بها قدر ذراع بغير عمارة . وتنافس الأمراء فى ذلك حتى بلغوا فى عمارته مبلغاً عظيما إلى الغاية .

وعمر فى أيامه أيضاً الصحراء التى فيما بين القلعة وخارج باب المحروق إلى قبة النصر وكان هناك ميدان القبق من عهد الظاهر بيبرس برسم ركوب السلطان وعمل الموكب به ، وبرسم سباق الخيل ، وأول من عمر فيه الأمير قراسنقر بربه وعمل لها حوض ماء للسبيل يعلوه مسجد ثم اقتدى به الأمراء والأجناد وغيرهم حتى امتلأ الميدان من كثرة العمائر .

وعمر السلطان لمماليكه عدة قصور : منها قصر الأمير طقتمر الدمشقى بحدره البقر وبلغ مصروفه ثمانمائة ألف درهم ، فلما مات طقتمر أنعم به السلطان على الأمير طشتمر حمص أخضر ، فزاد فيه . ومنها قصر الأمير بكتمر الساقى على بركة الفيل ، فعمل أساسه أربعين ذراعاً ، وارتفاعه عن الأساس مثلها فزاد مصروفه على ألف ألف درهم . ومنها الكبش حيث كانت عمارة الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فعمله السلطان سبع قاعات برسم نزول بناته وسراريه فيها للتفرج على ركوب السلطان إلى الميدان الكبير ،ولم ينحصر ما أنفق فيها لكثرته . ومنها اصطبل الأمير قوصون بسوق الخيل تحت القلعة ، حيث كان اصطبل الأمير سنجر البشمقدار ، واصطبل سنقر الطويل . ومنها قصر بهادر الجوبانى بجوار زاوية البرهان الصائغ بالجسر الأعظم تجاه الكبش ومنها قصر قطلوبغا الفخرى ، وقصر الطنبغا الماردينى وقصر يلبغا وهو أجل ما عمره من القصور ، من صرف على أساسه خاصاً عن ثمن جير وحجر وأجرة مائة وثلاثين ألف درهم وعمل نزوله فى الأرض ثلاثين ذراعاً ، واحتيج فيه إلى زنة عشرة آلاف درهم لازورد لدهان سقوفه ثمنها مائة ألف درهم .

وعمر الأمراء فى أيام السلطان الناصر عدة دور ، منها دار الأمير أيدغمش أمير آخور ،ودار آقبغا ، ودار طقزدمر ، ودار بشتاك على النيل – وهى تشتمل على ربع كبير فوق زريبة بجوار جامع طيبرس – وقصر بشتاك بالقاهرة وقد ذكرت هذه القصور والدور فى كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والأمصار ذكراً مستوعباً لأخبارها .

وكانت للسلطان عناية كبيرة ببلاد الجيزة ، وعمل على كل بلد بها جسراً أو قنطرة ،وكانت أكثر بلادها تشرق لعلوها ، فعمل جسر أم دينار فى ارتفاع اثنى عشر قصبة ، أقام العمل فيه مدة شهرين ، فحبس الماء حتى رويت تلك الأراضى كلها ، وعم النفع بها وقوى بسبب هذا الجسر الماء حتى حفر بحراً يتصل بالجيزة ،وخرج فى أراضيها عدة مواضع زرعت بعد ما كانت شاسعة ، أخذ منها قوصون وبشتاك وغيرهما عدة أراضى عمروها ووقفوها ، واستجد السلطان على بقيتها ثلاثمائة جندى .

واستجدت فى أيامه عدة أراضى بنواحى الشرقية وفوة وشباس، وأقطعت لعدة أجناد . وعمل أيضاً جسر شيبين ، فزاد بسببه خراج الشرقية . وعمل جسر خارج القاهرة حتى رد النيل على منية الشيرج وغيرها ، وعمرت بسببه بساتين جزيرة الفيل وكثر عددها .

وأحكم السلطان عامة أرض مصر قبلها وبحريها بالترع والجسور حتى أتقن أمرها ، وكان يركب إليها برسم الصيد فى كل قليل ، ويتفقد أحوالها وينظر فى جسورها وترعها وقناطرها بنفسه بحيث أنه لم يدع فى أيامه موضعاً منها حتى عمل فيه ما يحتاج إليه .

وكان له سعد فى جميع أعماله ، فكان يقترح المنافع من قبله ، بعد أن كان يزهده فيما يأمر به حذاق المهندسين . ويقول بعضهم « ياخوند ! !. الذين جاءوا من قبلنا لو علموا أن هذا يصح فعلوه » ، فلا يلتفت إلى قولهم ويفعل ما بدا له من مصالح البلاد ، فتأتيه أغراضه على ما يحب ويختار ، فزاد فى أيامه خراج مصر زيادة هائلة فى سائر الأقاليم . وكان إذا سمع بشراقى بلد أو قرية من القرى أهمه ذلك ، وسأل المقطع بها عن احوال القرية المذكورة غير مرة ، بل كلما وقع بصره عليه ، ولا يزال يفحص عن ذلك حتى يتوصل إلى ريّها بكل ما تصل قدرته إليه . كل ذلك وصاحبها لا يسأله فى شىء من أمرها ، فيكلمه بعض الأمراء فى ذلك فيقول « هذه قريتى ، وأنا الملزوم بها والمسئول عنها » فكان هذا دأبه . وكان يفرح إذا سأله بعض الأجناد فى عمل مصلحة بلده بسبب عمل جسر أو تقاوى أو غير ذلك ، وينبل ذلك الرجل فى عينه، ويفعل له ما طلبه من غير توقف ولا ملل فى إخراج المال ، فإن كلمه أحد فى ذلك فيقول « فلمَ يجمع المال فى بيت مال المسلمين إلا لهذا المعنى وغيره ؟ » فهذه كانت عوائده . وكذلك فعل بالبلاد الشامية ، حتى أن مدينة غزة هو الذى مصرها وجعلها على هذه الهيئة، وكانت قبل كآحاد قرى البلاد الشامية ، وجعل لها نائباً ، وسمى عملك الأمرا ، ولم تكن قبل ذلك إلا ضيعة من ضياع الرملة ، ومثلها فكثير من قرى الشام وحلب والساحل يطول الشرح فى ذكر ذلك .

وأنشأ السلطان الناصر الميدان الكبير على النيل ، وخرب ميدان اللوق الذى أنشأه الظاهر بيبرس، وعمله بستاناً حملت إليه الأشجار من دمشق وغيرها، فكانت فواكه تحمل إلى الشراب خاناه السلطانية . ثم أنعم به على الأمير قوصون ، فبنى تجاهه على الزريبة المعروفة بزريبة قوصون ووقفهما .

واقتدى به الأمراء فى العمارة ، فأخذ قوصون بستان بهادر رأس نوبه — ومساحته خمسة عشر فداناً — وحكره للناس، فبنوه دوراً وعرف بحكر قوصون . وحكر السلطان حول البركة الناصرية أراضى البستان فعمره الناس وسكنوا فيه . وحكر الأمير طقزدمر بجوار الخليج بستاناً مساحته ثلاثون فداناً، وبنى له قنطرة عرفت به ، وعمل هناك حماماً وحوانيت ، فصار حكراً عظيما للمساكن . وحكر الأمير آقبغا عبد الواحد بستاناً بجوار بركة الفيل، فعمر عمارة كثيرة بعد ما كان مقطع طريق، فصار قدر مدينة كبيرة . وأخذ بقية الأمراء جميع ما كان من البساتين والجنينات ظاهر القاهرة وحكروها ، وحكرت الدادة حدق — وهى المعروفة باسم ست مسكة القهرمانة — حكرين عرفا بها، فجاءوا من أحسن الأحكار ، وأنشأ لكل واحد منهما جامعاً تقام به الجمعة، فأنافت الأحكار التى استجدت فى أيامه على ستين حكراً حتى لم يوجد موضع بحكر . واتصلت العمارات من خارج القاهرة إلى جامع ابن طولون والمشاهد، وقد ذكرنا أيضاً هذه الأحكار فى كتاب المواعظ والاعتبار ذكراً شافياً .

وفى أيامه عمر الأمير قوصون بالقاهرة وكالة حيث كانت دار تعويل البوعانى ، وعمر الأمير طشتمر حمص أخضر ربعاً بجوار حدرة البقر ، وهو الذى عمر قيسارية الحريريين بجوار الوراقين من القاهرة . وعمر

أمير بكتمر الساقى بمدينة مصر ربعين وحوانيت على ودار وكالة ومطابخ سكر، وعمر الأمير طقزدمر التفاح خارج باب زويلة والربع الذى فوقه .

وتجددت عدة جوامع فى أيامه أنافت على ثلاثين جامعاً : منها الجامع الناصرى بقلعة الجبل، جدده السلطان الناصر وأوسعه، والجامع الجديد الناصرى ظاهر مصر على النيل، وجامع المشهد النفيس، وجامع الأمير كراى المنصورى بآخر الحسينية وجامع الأمير طيبرس نقيب الجيش على النيل بجوار الخانكاه، وهو الذى عمر أيضاً مدرسة بجوار الجامع الأزهر بالقاهرة ، وجامع الأمير بدر الدين محمد بن التركمانى بالقرب من باب البحر، وجامع الفخر ناظر الجيش على النيل فيما بين بولاق وجزيرة الفيل .

وهو الذى عمر جامعاً آخر خلف خص الكيالة ببولاق، وجامعاً ثالثاً بالروضة ، وجامع كريم الدين خلف الميدان ، وجامع شرف الدين الجاكى بسويقة الرئوى، وجامع الأمير قيدان الرومى بقناطر الوز ، وجامع دولت شاه مملوك العلائى بكوم الريش، وجامع الأمير جمال الدين آقوش نائب الكرك بطرف الحسينية، وجامع ناصر الدين الحرانى الشرابيشى بالقرافة، وجامع الأمير آقسنقرشاد العمائر قريباً من الميدان ، وجامعا خارج باب القرافه عمره جماعة من العجم، وجامع التوبه بباب البرقية — عمره مغلطاى أخو الأمير الماس — وجامع بنت الملك الظاهر بيبرس بالجزيرة المستجدة ، وعمر ما حوله أملاكاً كثيرة ، وجامع الأمير الماس بالقرب من حوش ابن هنس ، وجامع الأمير قوصون خارج القاهرة ، وجامع خارج باب القرافه، وجامع الأمير عز الدين أيدمر الخطيرى على النيل ببولاق ، وجامع أخى صاروجا بشون القصب، وجامع الحاج آل ملك بالحسينية، وجامع الأمير بشتاك على بركة الفيل تجاه خانكاه ، وجامع ست حدق فيما بين قنطرة السد وقناطر السباع، وجامع ست مسكه قريباً من قنطرة آقسنقر ، وجامع الأمير الطنبغا الماردينى خارج باب زويله ، وجامع مظفر الدين بن الفلك بسويقة الجميزة من الحسينية ، وجامع جوهر السحرتى قريباً من باب الشعرية، وجامع فتح الدين محمد بن عبد الظاهر بالقرافة .

واستجد بدمشق فى أيام السلطان الناصر أيضاً جامع كريم الدين ، وجامع شمس الدين غبريال ، وجامع الأقرم ، وجامع تنكز وجامع يلبغا .

* * *

وبعد فإن مؤلفات المقريزى وغيره من قدماء المؤلفين السابقين فى مصر لاتزال توصف بأنها كتب صفراء باهتة المعرفة ، مع العلم بأنها كتب سبقنا المستشرقون إلى كتابة تاريخنا منها، فى مؤلفات أوربية بيضاء ناصعة المعرفة . وأقول إن هذه الكتب العربية القديمة الحافلة بأصول التاريخ المصرى ليست باهتة المعرفة كما ينعتها بعض الناعتين المحدثين ، بل تشف بمحتوياتها عن ألوان زاهية مضيئة لمعرفة مصر وأهلها فى العصور الوسطى ، وهى معرفة واجبة علينا للذين نحن أبناؤهم . ولا سبيل إلى إنكار هذه المعرفة الواجبة ، أو التنكر لها أو جحودها أو تصغير شأنها فى تكويننا الحاضر والمستقبل . وربما يقول بعض القائلين أن مقتضيات الحياة الحديثة تتطلب الاستمداد الثقافى من المؤلفات الغربية الحديثة فحسب ، لا من الكتب الشرقية القديمة وأشباهها مما طال عليه سالف الأمد . وعندى أنه ينبغى على الشرق الأوسط أن يأخذ من قديم الشرق وحديث الغرب معاً ، على قاعدة الاختيار والاقتباس المستنير من المنبعين مع الملائمة والاعتدال .

ومن البديهى أن الاقتباس من المنبع الشرقى معناه إحياء كتب التراث القديم فى مختلف العلوم والفنون ، بالنشر السليم ، واستخدامها على نحو ما فعل المستشرقون قبلنا . ومن البديهى كذلك أن القنوع بالاستمداد من المؤلفات الغربية الحديثة ، يجعل البناء الثقافى فى الشرق العربى على أساس طارئ عليه ، وهو أخطر أنواع البناء عند أساتذة علم النفس التربوى والاجتماعى .